أحمدوا بعضكم بعضا

قصة بقلم محمد خضير

كانوا ينطلقون بمقدمة حمراء ، تحت شمس الظهيرة المتقدة .

وشاهد طير محلق سيارة الخشب الطويلة ، بمقدمتها الحمراء ، كالجمرة ، تتبعها زوبعة التراب ، تنطلق في الطريق الترابي الملتوي الذي يخترق مساحة منبسطة شاسعة مرقعة بمستنقعات مائية ضيقة ، تكاد تكون الجفاف ، ومفطاة بنباتات القحط المالحة . وهبط الطير لاحد هذه المستنقعات .

وفي مرآة المراقبة الداخلية الموضوعة أسفل صورة لمريم العذراء ، مطعونة القلب بخنجر مشع ، مجاورة لصورة احد الائمة ، كان السائق يراقب الوجوه المتداخلة . في المرآة كانت ثيابهم وكوفياتهم مغبرة ، وعقل الرجال الغليظة المائلة كذلك ، اما عباءات النساء فمنطفئة السواد .

خلال نوافذ السيارة ، كانت الارض تنحسر على جانبي الطريق ، ونباتات (العاقول) و (الحلفاء) تجري مسرعة حوله ، وتدور مع السيارة في المنعطفات ، بينما يتكرر هجومها المفاجيء من خط النخيل الداكن البعيد بعد ان سلبها القيظ خضرتها فبدت مجعدة غبراء ، كشعر حواء الذي لم يقص منذ هبوطها للارض .

قال السائق :

ـ وصلنا يا زوار . سنصل بالسلامة ، بعد قليل نصل الرميثة وبعدها بقليل ستطالعنا السماوة وسنصل الناصرية مع الليل بعون الله.

وشاهد السائق في المرآة العيون تتداخل ، وتنطمس مع ارتجاج السيارة المستمر ، خمسة واربعون جسدا ، حشروا في هيكل السيارة ، على المقاعد وفوق الارض الخشبية : خمسة في المقدمة مع السائق ، وخمسة وعشرون في الوسط ، وفي الخلف الباقون ـ معهم متاعهم وصرر ثيابهم ، كانوا جميعا يرتجون . تحت السقف اللامع المضلع كانت معهم أيضا (سليمة مراد) تغني في الميكروفون الذي ينقل صوت المذياع بجانب المقود . كان الغناء همجيا ، كانه حداء لقافلة تائهة ، محطمة .

ردد السائق :

ـ في الجراج القادم سيشرب العطشان ويأكل الجوعان وكل منكم سينال مراده .

قالت عجوز في الوسط :

ـ نلنا مرادنا تحت منائر الائمة ولا يهمنا الا الوصول بالسلامة .

والتفت رجل ذو لحية بيضاء للعجوز التي تلاصقه ، كنبتة متعايشة ، وسألها :

ـ ونخلة الخضراوي ؟ الا زالت قائمة في البيت ؟

ـ بلى . لم يقطعها أحد .

ـ وهل تعطي ثمرا ؟

ـ كلا . لقد جفت .

ـ والحاج دعبول . الا زال بخير ؟

ـ بخير .

ـ وابنته . أتزوجت ؟

ـ تزوجت معلما .

ـ أهي الطرشاء ام الاخرى ؟

ـ الاثنتان تزوجتا .

مرت السيارة بمجموعة بيوت تحاذي الطريق ، سرعان ما اختفت.

كان هناك من يجري في الخارج مع السيارة : شكلا شفافا كونته الريح واشعة الشمس يركض بأقدام جبلت من السبيخ والملوحة . كانت تلك الاقدام ، ذات السرعة المذهلة ، تدوس صفرة النباتات متجهة نحو الافق الهارب ، بينما ينشطر بعضها ليحاذي السيارة في دورانها ورجرجتها . انتهت (سليمة مراد) من الغناء في المذياع ، وتلتها مطربة اخرى ، غير ان امرأة ترضع طفلها تحت عباءتها ، تجلس على ارض السيارة ، كانت تبكي دون صوت . ودخل التراب من النوافذ واستقر على الركاب والامتعة . وفاحت بنفاذ رائحة خضاب من رؤوس وعباءات القرويات ـ كانت تلك رائحة الموت ، والكل يعرف ذلك . وقال الرجل ذو اللحية البيضاء للمرأة المرضعة :

ـ خبئي طفلك من الرائحة .

خزرته عدة قرويات ، ورنت (جناجل) الطفل حين زادت أمه في اخفائه تحت العباءة . وجميعا سمعوا راكبا في الخلف :

ـ أتعرف صاحبتك هذه ؟

ـ ودون ان يلتفت ذو اللحية البيضاء ، استمر يلف سيجارته بصعوبة من العلبة التي يمسكها بين اصابعه ، وقد بعثر تذبذب السيارة التبغ في حضنه المفروش . كانت فخذه تتسلق فخذ العجوز الملفوفة بعباءة صوفية خشنة ، وراقبه الاخرون يلصق طرف سجارته المطوية ببلل لسانه ، كما شاهدوا فمه حين فتحه وبصق التبغ الذي تساقط فيه :

ـ هذه ؟ كانت اصغر واصغر حين عرفتها ، بيتنا كان يجاور بيتها . وكان ابي يعرف اباها وسطحانا متجاوران ، وكثيرا ما تشاركنا الطعام والسهر في رمضان . وحين كبرت تزوجت هي وتزوجت انا بعد ان افترقت عائلتانا وراء الرزق . ومات زوجها دون ان اعلم الا الان في السيارة هذه .

اشعل سيكارته :

ـ واعلمتها ان زوجتي قد ماتت كذلك . علمت منها ايضا انها بعد وفاة زوجها اوت الى بيت احد اقاربها الابعدين . وانا اعرف قريبهم هذا . كانت له بنتان تزوجتا كما قالت .

نفخ دخان سيجارته :

ـ لم يكن قريبهم هذا مثلنا نحن الناس . وقد اهينت هناك . وحملوها اعباء كثيرة .

قالت العجوز : ـ رأيت الضيم .

استمر ذو اللحية البيضاء :

ـ رأت الضيم . وفقدت كل اسنانها وعجز جسمها عن القيام والقعود .

قالت العجوز :

ـ وقلت لنفسي : يا بهية اذهبي للنجف وزوريها قبل موتك .

قال ذو اللحية البيضاء :

ـ وقالت لنفسها أن تزور الائمة فزارت .

قالت امرأة في الخلف : ـ لذلك انت تعرفها جيداً .

ـ نعم اعرفها . لا تعتبروها كذلك . لم تكن هكذا . فبالاضافة الى انها كانت قوية جدا وتستطيع ان تهبش طنا من الحنطة فقد كانت كثيرة

الضحك . ولو كنت قد رأيتها في ذلك الزمان لقلت انها ستعيش طويلا لانها امرأة مسرورة . لقد كانت ، اي نعم ، كانت .

قالت العجوز :

ـ وما زلت . انا سريعا ما انسى العذاب . العذاب مقدر لكل منا. انا انسى واعود وكأني امرأة صغيرة . وانا انسى اني قد نفضت ثلاث بطون انكرتني مواليدها . والان انا باردة القلب . لقد دعوت الائمة ان يزيلوا الهم عني . والان انا باردة وصافية القلب . من منكم لم يصف قلبه بعد ؟ ليس لي ما أتحسر عليه . قضيت وطري من الدنيا ، أديت نذري للحسين ، وانا مرتاحة الان ومسرورة .

والشمس مسرورة ايضا . وكل حبة غبار تدخل السيارة تسبت في داخلها دنيا عجيبة ، ما أن تستقر في الهيكل السائر حتى تنفلق عن دنياها ، وتستنشقها المناخر الهائجة اشبه ما تكون بدخان بخور الجمعة ، بالكافور ، بتراب سجادات أقبية الاضرحة والسراديب . كان التراب المستنشق ثقيلا ، يتسرب للداخل كأطياف غريبة ، خليعة ، تهمس عن النشوة وتحرر القلوب من سطوة النذور التي تم تقديمها قبل ساعات بخشوع ورهبة ، كما تجردها من قدسيتها وخشيتها من الاتي ، وتطلي أغشية القصبات الهوائية والاشفقة والامعاء بنقيع الترياق . وكالانزلاق تحت غطاء من الوبر ، كانت اغنية الميكرفون المثقب .

كانت العجوز تتكلم :

ـ ضعوا طافا من الرحمن على صدري وسأقول لكم ضعوا أزيد ولن اكدر احدا اذا ما مت تحت كل ذلك الثقل . وسأموت براحة .

شربت العجوز ماء . كانت لديها (شربة) فخارية ذات عروة مكسورة . شربت وغاب وجهها في فم (الشربة) . وحين ابعدتها عن وجهها ، جالت انكسارات أحدافها في الوجوه المرضوضة بثقل السرعة القائظة . وتكلمت بلسان مبلل ، هنيء :

ـ من منكم العطشان ؟

قال راكب في الخلف : ـ أيوجد ماء كاف لديك ؟

قالت العجوز : ـ لدي ماء للجميع . مائي للجميع . هاكم .

أعطت (الشربة) لاقرب رجل يجلس عند قدميها على خشب السيارة . شرب الشخص بقرقرة ، وغرق في (الشربة) حين اختفت عيناه وشارباه ـ كان على وشك ان يغيب داخلها . وانتقلت (الشربة) من يد ليد : شربوا دون احتراس ، وخاضوا وسط الماء بشفاه محترقة ، كما لو كانوا يخوضون مستنقعا باردا بأقدام متشققة جافة . ومن خلال القطرات التي سالت على جوانب الافواه ، ومن خلال القطرات التي علقت بالشوارب واللحى ، كانوا يرون انقذافهم للخارج : بوضوح خلال شفافية الماء تنفصل عنهم اغشيتهم ، منشطرة ، خافقة في مدى الضوء الساكن الواقع خلف النوافذ ـ هناك في كينونة الخلاء المضاء بالاشعة ، تمتد الاسلاك المطاطية التي تربطهم بأشباحهم الراقصة ، بتثن وهمي ، عار ، وتتشرب بالسيولة الضوئية . وبين الاطياف المعراة ، يتأرجح طير محلق على بعد غير مضبوط ، تقوم اجنحته بعرض انثناءات خادعة ، مموهة ، فليس هناك ما هو حقيقي وثابت التكوين خارج النوافذ ، فكأنه احد طيور العالم الاخر ، وما تلك الاغشية السابحة الا بشرات الاجساد المغسولة في مياه عذبة ، شديدة العذوبة ـ ها هنا وها هناك التواءات ذابلة . كان التجرد تاما ، والعري مخجلا وغير شريف . هناك مؤامرة ما على الاحساس المنطلق بمقدمة جمراء ، يحوكها الغبار وأشعة الشمس ، والمذياع أيضا . بينما يستمر العبور نحو الفردوس المجهول.

ـ هاكم خبزا . من منكم الجوعان ؟ هذا خبز وقد تزودت به للطريق . اني احفظه هنا في صرتي .

اعطت العجوز الرجل ذا اللحية البيضاء قطعة خبز ، ومن يد ليد انتقلت قطع الخبز . وحصل السائق على قطعة صغيرة ، كما رجعت (الشربة) فارغة من الماء الى العجوز ، وكانت ملوثة بالتراب .

كانت العجوز تقول :

ـ سيشبعكم هذا الخبز المبارك . اشتريته من النجف .

سمعوا السائق :

ـ انتوقف في الكراج القادم ؟

تشاوروا بالهمهمات والكلمات المتساقطة . قال احدهم في الامام :

ـ نعم ، لنتوقف فنصلي صلاة الظهر ، ونسترح .

كانت العجوز تلوك خبزها ، حين تكلمت :

ـ هذا صحيح .

كان الشكل ، الذي توهم انه يجري مع السيارة في الخارج ، المولود من رحم الريح ، يزيد من سرعته ، متخطيا النباتات الشوكية الواطئة ، قافزا الحفر والمنخفضات ، ضاحكا بصوت يحاكي صوت ماكنة ، ومع ان الدخان الناتج عن احتراق زيت السيارة يأتي احيانا غزيرا من الخلف ويغطي الشكل الجاري ، الا ان هذا الشكل سرعان ما يظهر ثانية ويستمر في ركضه دون تعب . وفي داخل الهيكل السائر سال العرق على الوجوه ، واختلط بالغبار طينا . وكل الاعين تراقب العجوز المباركة ، المسرورة . وفي حين انه لم يبق من العبور الا مسافة قصيرة ، قصيرة جدا ، كقفزة على نهر من خل ، وفي حين أن أغوار الاعين تفور بالسرور وكأنه يطبخ في قدور من البلور ، وفي قدور اخرى من النحاس كانت تفور وتطبخ القلوب النظيفة ، والمتدرنة ـ في حين يستمر العرس أو المأتم. حدثت، بصورة كريهة ، نتنة ، الوشاية. كيف تم ذلك ؟ من الذي سمل عيني العجوز ، وأسال الوشاية منهما ؟

صرخ رجل تلوع بالقيء : ـ قف ، ايها السائق . بالله قف .

التفت السائق : ـ ماذا حدث ؟

ـ هذه العجوز . هذه المرأة . انها في حالة سيئة . قف حالا .

توقفت السيارة ، وكف الشكل الخارجي عن الجري ، وتلوث الضياء ، بينما هجمت الحرارة القائظة دون تمهيد . كان الامر مريبا ، والعجوز المباركة تتقيأ باستمرار ، وعنف كريه . كانت السيارة تقف الى جانب نخلة قميئة ، وارفة الظل .

ـ ما هذا ؟ ما الذي تظنون انه وقع ؟

سأل احدهم ـ وما الذي يقع ؟

ـ انها تتقيأ .

ـ نعم . نعم . نعم .

ـ ماذا اصابها ؟ اسمعوا انا اعرف ..

ـ .. الكوليرا ؟

ـ ..... الكوليرا ؟

ـ ..... الكوليرا ؟

قال السائق : ـ لننزلها .

ـ لماذا ؟

ـ لن نستطيع ان نستمر وهذه العجوز معنا . انكم تعرفون . وحتى اذا ما أوصلناها للمنطقة التالية وأودعناها هناك فاننا لن نستطيع ان نستمر . انهم لن يدعونا نفلت . وسيحجزوننا . ربما لايام عديدة . انا لا اتكلم عن الضرر الذي يلحقني . فهذا ليس مهما بالنسبة لي . بالنسبة لكم فقط . انتم .

قال ذو اللحية البيضاء :

ـ قد يكون هذا صحيحا .

قال السائق :

ـ هذا مضبوط . تدبروا أمركم .

انزلوا العجوز ، وجروها دون صرتها ولا (شربتها) ، ولجذع النخلة اسندوها . كانت العجوز قد انقطعت عن القيء ، واستطاعت ان تنطق :

ـ لماذا ؟ أوصلنا للكراج ؟

ـ انها لم تفهم حالتها .

ـ الحل ان نتركها .

صمتوا . لم يكن هناك ظل اخر ، ولكن على مبعدة منهم ، جمع بيوت من الطين .

ـ قال السائق :
ـ سينتبه احد افراد هذه البيوت لها . وسيرعونها .
ـ لن يستمر الامر طويلا . قد لا يدركونها .
ـ سواء هذا او ذاك . أتأخذون معكم من في مثل هذه الحالة ؟
ـ كلا . لا . لا .
ـ العدوى ، ثم الحجر .
ـ نعم . نعم .
وسألوا الرجل ذا اللحية البيضاء :
ـ ألديك اعتراض؟ انك تعرفها. والاصلح ألا تسبب لنا متاعب . الطريق طويل . أترغب في البقاء معها ؟
ـ انـــا ؟
قال السائق :
ـ كلا . هو لا يرغب بالتأكيد . الرجل ذو اشغال كثيرة والطريق طويل . ثم هناك الاجراءات الاخرى ومسؤولية كل ما يلحق ذلك . هـا أيها العم ؟
قال ذو اللحية البيضاء :
ـ هذا صحيح .. لقد عرفتها في السيارة فقط .. صحيح انـي اتذكرها .. ولكن الامر انتهى من زمان بعيد .. لست اعرفها تماما ..
سمعوا العجوز المنهكة :
ـ اصعدوني . لقد استرحت . كان الخبز ثقيلا على بطني . والان استرحت .
كانت تتنفس بصعوبة ، ووجهها اصفر كالدباغ ، والتقلصات التي تتحكم بملامح وجهها تشير الى انها على وشك الاستمرار في القيء بين لحظة واخرى . كان فمها ملوثا ، وملتويا ، كثقب سقاء اللبن او الدهن الحيواني ، وعيونها مطبقة . كانت خصلة بيضاء خارج (عصابة) راسها، تسكن كأصبع ميتة .
قال السائق :
ـ لن نصعدك .
سألت العجوز :
ـ لماذا ؟ انا معكم . اتيت معكم من النجف .
ـ كلهم يقولون انك ستبقين هنا .
ـ لماذا ؟ لقد دفعت الاجرة ...
سكتت ، وتوقعوا ان تقيء ، ولكنها اشارت :
ـ هذا الرجل يعرفني .. وسيتكفل أمري اذا ما أردتم فلوسا... او أي شيء آخر .
وهز ذو اللحية البيضاء راسه . قال السائق :
ـ يقول هو لا يعرفك .
قالت العجوز :
ـ أقال ذلك هو ؟ اين هو لاكلمه ؟
قبالتها تقرفص ذو اللحية البيضاء ، بعد تردد ، واخبرته العجوز :
ـ قل لهم انك .. تعرفني .. واننا كنا .. اسمع .. قل لهم .. انـــي ..
نهض رجل اللحية ، وقال :
ـ لن اتكفل امرها . قد تموت . القضية قديمة .. قـــد تموت ولست مسؤولا عنها .
قال السائق لمن نزل من الركاب :
ـ اصعدوا . لنستمر .
وحجبت سحابة تراب النخلة ، والعجوز . واستمر الشكل الذي انجبته الريح والغبار والشمس بالجري مع السيارة ، وكان يبدو انـــه ضجر جدا . اما الميكرفون فكان يردد ما يذاع من آيات القرآن الكريم .

بغداد — محمد خضير

مواطئ اقدام للصغار

الريح تمضغ السكون ،
تقتلع الابعاد والجهات ،
تطيح بالحدود والسدود
الريح تمسخ الوجوه ، تغمس العيون
في الطين واللهيب والصديد
الريح تحصد الجباه
بخنجر يرشح بالهوان
لا آهة تند عن لسان ..
حناجر القيان في سبات
حناجر القيان
وحدهم الاموات
يبكون ، يضحكون ، يصمتون
ماذا تقول رمم الشفاه ؟
ماذا تبقى منك يا حياه ؟
في الناس لم يبق سوى الجنون
في الارض لم يبق سوى الدخان

الريح تعوي والذرى تميد
ذاك دبيب أعصر الجليد
عودوا الى الكهوف يا صغار
فالشمس في احتضار
والماء غيض وانطوى الفضاء
وانحدرت عن برجها السماء

عودوا الى الوراء
لا تلعبوا فالارض في دوار
وموجة الزمان في انحسار
ليس لاقدامكم الوضاء
مواطىء بعد ، ولا غناء
ينشد للآتي من الايام

عودوا الى الارحام
عودوا الى الارحام يا صغار
تلبثوا هناك ألف عام
لسوف يأتي قمر الزمان
فيمسح الظلام
ويحرق الجليد
ويبعث الحياة من جديد
ويغمر العالم بالحنان
كونوا على انتظار ...
يا اخوتي الصغار ...

بيروت — حبيب صادق